الطواعين
في الأدب العربي
-٥-

بقلم : كاتب كبير معروف

قال سيد الأوصياء علي بن ابي طالب عليه السلام : « من كانت له إلي منكم حاجة فليرفعها في كتاب لاصون وجوهكم عن المسألة ». على القارئ الكريم ان يقف وقفة اجلال واكبار لهذه القاعدة النبيلة ، لهذا الدرس الرفيع الذي يريد به امير المؤمنين سلام الله عليه منا نسجاً على منواله واقتداء بشيمه ومكارمه أليست هذه الوصية تعادل دساتير الاخلاق وما حوته من السؤدد والمكارم ؟ هي وعينيك ذاك !

فان الطيب المعرق من الناس اذا نزلت به الحاجة يضيق بها ذرعا وتنتصب في لسانه كحلقة اللجام، تدفع به الى الكلام ضرورة لا معدى عنها ؛ وتمسك به عن البوح بها نفس حيية فهو اذن بين طابقين من دفع وجذب ! فاذا رفع حاجته على كتاب فقد صان ماء وجهه وانتظر انجاز حاجته ؛ الى الاقتداء بمثل هذا الكلام الشريف احوج منا الى غيره ؛ فاعتبروا يا اولى الالباب .

قال بعض الحكماء :

« اجود الناس ، من جاد عن قلة ، وصان وجه السائل عن المذلة .. »

قال ابراهيم بن السندي : « قلت لرجل من اهل الكوفة ، من وجوه اهلها ، كان لا يخف لبده ولا يستريح قلبه ولا تسكن حركته في طلب حوائج الناس وادخال المرافق على الضعفاء وكان رجلا مفوهاً ، قلت له « اخبرني عن الحالة التي خففت عليك النصب وهونت عليك التعب في القيام بحوائج الرجال ما هي ؟ فقال : قد والله سمعت تغريد الطير بالاسحار في فروع الاشجار وسمعت خفق اوتار العيدان وترجيع اصوات القيان فما طربت من صوت قط طربي من ثناء حسن بلسان حسن على رجل قد احسن

فقد تحدثت عنه في كتابك المذكور والذي له شأنه ومنزلته في عالم العلم والادب والتقى والصلاح فلقد مدح الشيخ عباس بقوله من قصيدة :

يا خير فرع طيب الأصل ... وخير قرم شامخ الفضل
وصلت في حبلك حبل الرجا ... فصل به حبلك في حبلي
ان قلت هل في الناس من مفضل ... قالوا نعم : ذاك ابو الفضل
فان يكن بعل لبكر العلى ... فما لها إلاه من بعل
كم في المعالي من قضايا له ... نتيجة عقيمة الشكل
وكم له وابل جود همى ... ازرى على منهمر الوبل
وكم له ابكار فكر بها ... من كل رمز فاتح القفل
فاسلم مدى الأيام من غدرها ... من العلا تجني جنى النحل

ومثل السيد صالح كثير منهم الشيخ ابراهيم العاملي ، والشيخ عبد الحسين محي الدين ، والشيخ حسن قفطان ، والسيد حسين بحر العلوم ، والشيخ طالب البلاغي ، وهؤلاء اعلام لا مجال لذكرانهم . أترى عالماً جهبذاً وشيخاً كبيراً يمدح صبياً يتغزل به الناس ويشرب الخمر « ويعربد احياناً عربدة مسلم بن الوليد » أي منطق يقر هذا الحكم وأي مستند يفضي الى هذه النتيجة ؟ أهو قول العمري :

حبيب اذا أنشى صريع اذا انتشى ... بديع اذا وشى غريض اذا غنى

أتنكر الخيال الذي طالما افتقر اليه الشعراء فوسعوا وابدعوا وابتكروا معان قد تفوت على (البعض) فيحسب ان المدح غزلاً والغزل مدحا. هل تنكر هذا الخيال الذي طالما افرغ على الشعر حلة اخاذة تخلب الالباب وتهيمن على المشاعر . هل تنسى قول المتنبي ومبالغاته التي منها قوله :

ولو قلم القيت في شق رأسه ... من السقم ما غيرت خطاً لكاتب

وقوله :

روح تردد في مثل الخلال اذا ... أطارت الريح عنها الثوب لم تبن

وما ذا تعني يا دكتور بقولك ـ

اغتصب التقبيل من خده ... ولذة التقبيل ان تغتصب

هل هناك حقيقة لما يتضمن هذا البيت ؟ لا شك انه خيال مجرد . والى اللقاء في العدد القادم ؟

على الخاقاني

ومن شكر حر لمنع حر ؛ ومن شفاعة محتسب لطالب شكر...»

قال ابراهيم ؛ فقلت له : لله ابوك لقد حشيت كرما ومجداً ..»

فمن هذه السبيل يخلص الرجال الى معالي الامور ومفاخر الحياة وشرف الذكرى في الدارين ،

ولقد قال امام البلغاء امير المؤمنين ، وما اغلى ما قاله في هذه الجملة القصيرة المعجزة حقاً ، وهي كما قيل « يكفيك من القلادة ما دار في العنق » ؟ ! قال سلام الله عليه « قيمة كل امرئ ما يحسنه » !

قال بكر بن النطاح :

أقول لمرتاد الندى عند مالك تمسك بجدوى مالك وصلاته
فتى جعل الدنيا وقاء لعرضه فاسدى بها المعروف قبل عداته

يشير هذا الشاعر الى ان ممدوحه يجود ابتداءاً تكرماً منه اما اذا وعد فالوفاء تلو وعده حتما .

وقال حسين بن الضحاك :

رأى شيم الجود ممدوحة وما شيم الجود إلا قسم
فزاح على « نعم » واغتدى كأن ليس يحسن إلا « نعم »

عمارة اليمني :

وغدر الفتى في عهده ووفائه وغدر المواضي في نبو المضارب

وقال النابغة الجعدي يهجو مخلف وعد :

لو ان الباخلين وانت منهم رأوك تعلموا منك المطالا

قال المعري :

يا دهر يا منجز إيعاده ومخلف المأمول من وعده

وهو كما قال المتنبي ؛ أو مأخوذ منه :

يعللنا هذا الزمان بذا الوعد ويخدع عما في يديه من النقد

قال اعرابي لرجل سأل ايماً : « نزلت بواد غير ممطور وفناء غير معمور ؛ ورجل غير ميسور فاقم بندم أو ارتحل بعدم . . . »

« قال النبي [ص] اللهم اعط منفقاً خلفاً واعط ممسكا تلفاً » وقضاء الحاجات انفاق وحبسها خلف ؛ وقد دعا صلى الله عليه وآله للأول بالزيادة ودعا على الثاني بالخسران ، وكفى بدعائه حثاً على عمل الخير والوفاء بالوعد .

« ولقد قالوا : الحر اذا وعد وفى ، واذا أعان كفى ، واذا ملك عفا » ويكفي الوفاء بالوعد فخراً كونه صفة من صفات احرار الرجال .

وما احسن ما قاله اعرابي في وصف من وعد فوفى وقال ثم انجز ولم يكدر الصنيع :

« باكرنا وسمي ثم خلفه ولي ، فالارض كأنها وشي منشور عليه لؤلؤ منثور .. »

قال نصير الدين الحمامي :

جودوا لنسجع بالمديح على علاكم سرمدا
فالطير احسن ما يغرد عند ما يقع الندى

ولله در القائل :

لمن تطلب الدنيا اذا لم ترد بها سرور محب او اساءة مجرم

وقال آخر :

دعوت نداه دعوة فاجابني وعلمني احسانه كيف آمله

قال البحتري :

كأن سناها بالعشي لصبحها تبسم عيسى حين يلفظ بالوعد

قال ابن الرومي :

اذا انت ازمعت الصنيعة مرة فلا تعتصر ماء الصنيعة بالمطل

وله :

طال المطال فلا خلود لحاجة مقضية أو برد يأس ينقع

قال الشريف الرضي :

أرى وجوهاً وايانا مقفلة فمغلق البشر منها مغلق الجود
معبسين لئلا يحدثوا طمعاً للسائلين ولم يوفوا بموعود

وله :

بحيث انعقد الرمل غزال دأبه المطل
جرور للمواعيد فلا منع ولا بذل

وله :

ورددته والقول ليس بخليت في عقبه والوعد غير جهام
والقول يعرض كالهلال فان مشى فيه الفعال فذاك بدر تام

وله :

كم غبت عنه وما غابت مكارمه ونمت عنه بآمالي ولم ينم
ما ضج من طول مطله امل ولا اشتكته العهود والذمم

(يتبع)